

الافتتاحية

الإنسان يخسر ذاته

كانت حياة الناس في أوروبا قبل الثورة الصناعيّة، وحتى الثورة الفرنسيّة في نهاية القرن الثامن عشر حياة بسيطة بساطة وسائل العيش، والتنقل، وسبل التواصل الإنسانيّ المباشر بين الأفراد. وكانت القيم التي تسود في تلك المجتمعات هي أيضًا قيم البساطة، والتعاون، والحياة الأسريّة، والإنجاب. وهي قيم مُستمدّة من الثقافة الدينيّة المسيحيّة التي تحضّ على بناء الأسرة، وعلى مساعدة الضعيف، وعلى الالتزام بالضوابط الأخلاقيّة، وضبط الرغبات، وعدم التعلّق بمُغريات الحياة الدنيا.

لم يستمرّ الأمر على ذلك الحال من بساطة العيش، ومن الحرص على القيم الأسريّة والأخلاقيّة، ومن التواصل الإنسانيّ، فقد حصلت تغييرات كبرى: فكريّة، واجتماعيّة أدّت إلى انقلاب عميق في القيم والمفاهيم التي اعتاد الناس على عَدّها مرجعيّتهم في الانتماء، وفي التصرف، والتفكير، وفي علاقاتهم الاجتماعيّة، وفي تطلّعاتهم المستقبلية.

كان التحوّل الأهمّ الذي سيفتح مسار التغيير في حياة الغربيين، ويؤثر لاحقًا

على باقي العالم هو ما تعرّض له الدين، وليس المؤسسة الكنسية فقط، من تهيش، ومن إقصاء عن أي دور في توجيه الحياة الفردية والاجتماعية. كان للثورتين الصناعية التي حصلت بين منتصف القرن الثامن عشر، واستمرت حتى منتصف التاسع عشر، والفرنسية التي حصلت في نهاية القرن الثامن عشر الأدوار الفاعلة في طي صفحة الدين، وفي قطع العلاقة مع الإله ومع الغيب؛ أي رفض أي تعلّق، أو اعتقاد بما هو غير مرئي، وغير تجريبي. وهو ما أطلق عليه ماكس فيبر «نزع السحر عن العالم». و«نزع السحر» بالنسبة إلى فيبر هو ذروة عملية العقلنة من خلال العلم الحديث. وهو «كسر جميع الأساطير فوق الطبيعية والرموز المقدسة»؛ لأنّ الكون المنزوع السحر هو الكون الفيزيائي والماديّ المحض والمجرد من المعتقدات الدينية.

قدّمت الثورتان: الصناعية، والفرنسية بما انجزتاه في مجالات التشريع والتقدم العلمي، الوعود للإنسان «الجديد» بالسعادة القادمة الملموسة والحقيقية، وليس سعادة «الآخرة» الغيبية التي لا يعرف أحد متى، وكيف وهل ستأتي أم لا؟!... وخلافاً لضوابط الدين، ولتعاليم الكنيسة ستصبح الحرّية، على سبيل المثال، هي هدف السعادة الذي ستروّج له الأفكار الفلسفية والاجتماعية والسياسية الجديدة، وستصبح الفردية هي «الدين الجديد» الذي ستُعظّم من شأنه والدعوة إليه معظم الأفكار الفلسفية والاجتماعية والأدبية في عصر النهضة وما بعده، وهو ما سيطلق عليه عصر الإنسانيّات قبل أن يتحوّل إلى عصر الحداثة.

ستبدأ مع دين الفردية الجديد أزمة الإنسان المعاصر في الغرب، خاصّة وأنّ تلك الفردية، أو الفردانية كانت تعني عملياً الانعتاق من أيّ سلطة خارجية أخلاقية، أو دينية، أو حتى اجتماعية. فلم تعد الرّوح تؤخذ مأخذ الجد، ولم يعد المسيح نفسه سوى قديس إنسانيّ في نظر الفلاسفة. وها هو هوبز، على سبيل المثال، يعتقد «أنّ الذين يتبعون نور العقل لا بُدّ وأنّ يتخلّصوا من الإيمان؛ لأنّه غير موثوق على المستوى العقلي... إنّ الإيمان أيديولوجيا تتضادّ مع المعرفة». كما ذهب آخرون إلى أنّ الدين سيختفي في العالم مع تسارع وتيرة الحداثة، وأنّ تطوّر المجتمعات الغربية بفعل تقدّم التكنولوجيا سيجعل الأفراد يستغنون عن الحاجة إلى الدين. ومن ثمّ، فهو في طريقه إلى الزوال.

بدأت أزمة الإنسان المعاصر في الغرب عندما اكتشف أنّ وعود السعادة

وأحلامها التي قَدَمَتها الأفكار الفلسفية والاكتشافات العلمية، والنظريات الاجتماعية والتحليلية، بعد تهميش الدين والكنيسة، وحتى مع تأليه الحرية والفردانية لم تُحقّق المبتغى.

لقد ظنَّ النَّاسُ في القرن التاسع عشر أنَّ التَّقدُّم سيأتي مع الألفية الجديدة بمجتمع مثاليٍّ، فأتى التَّقدُّم الحديث بالقبلة الذريّة، وجميع أشكال الفوضى، والكوارث الاقتصادية... لقد وقعت فكرة التَّقدُّم في أزمة، بعدما خلق ذلك التَّقدُّم حالةً من التَّوحُّش واللّإنسانيّة في الحضارة الجديدة.

فقد ترافق «الوعد العظيم» للثورة الصناعيّة بالسَّعادة، مع توسُّع في البؤس والشقاء لمن توافدوا من الأرياف إلى المدن طمعاً في البحث عن العمل، وعن السَّعادة الموعودة. ولم يحصل هؤلاء سوى على البطالة، أو على عمل في أسوأ الظروف الإنسانيّة، في الوقت الذي كانت عجالات المصانع تستمرُّ في الدَّوران لمزيد من الإنتاج لتحصيل المزيد من الأرباح لأصحابها.

مع فكرة التَّقدُّم التي نظر لها بعض المفكرين، والفلاسفة، وعلماء الاجتماع، ستصبح مراكمة الأرباح، وامتلاك الثروات مقياساً للتَّباهي الفردي والاجتماعي، ومقياساً لسعادة الإنسان، وحتى لتباهي الغرب الأوروبي على باقي العالم.

مع هاجس التَّقدُّم سيصبح الفرد هو الغاية، وبدلاً من التَّوجُّه نحو الله، كما كان الأمر في السَّابق، سيصبح التَّوجُّه نحو حُرِّيّة الإنسان وفردانيّته هو الهدف، وسيصبح الإنسان وليس الله هو مركز الكون. وسيبدّل التَّفكير في الموت من المنظور الدِّيني بالدَّعوة إلى عيش الحياة ولحظاتها من خلال المحسوس والتَّجربة فقط... بعيداً من الغيب والآخرة، حتّى أصبحت مقولة «عش لحظتك» هي شعار عصر النّهضة.

هكذا توجَّهت العلوم الإنسانيّة عندما تأسست في تلك المرحلة، مثل: علم النَّفس، وعلم الاجتماع إلى ذلك الإنسان الذي قطع صلته مع الدِّين، وتوجَّه نحو ما يُمكن أن يُحقّق رغباته وأهواءه؛ أي أنَّ تلك العلوم تأسست على تلك القطيعة مع الدِّين، حتّى أصبحت علاقة الإنسان مع العالم أهمّ من علاقته مع الله، ومع ذاته. وتحوّل هدف حياة الإنسان في الغرب إلى تحقيق وظيفتين: الاستهلاك الدَّاخلي؛ بذريعة التَّقدُّم والمزيد من الإنتاج، والاحتلال الخارجي؛ لمزيد من الهيمنة، وبسط النَّفوذ، وجلب الثَّروات.

جاء القرن العشرون ليمزق ذلك التّفاؤل بالسّعادة، وبوعود التّقّدّم، وليفاجئ النّاس بمعسكرات الموت إبّان الحربين العالميتين، وباستخدام السّلاح النّوويّ، وبسقوط عشرات ملايين الضّحايا. وقد تُوجت تلك الحروب بأزمةٍ اقتصاديّةٍ خانقة حطّمت ما تبقى من ذلك «الوعد العظيم» الَّذِي دَغَدَغَ الأحلام مع بداية عصر العلم والاكتشافات، وتسيّد العقل، واستبعاد الدّين. فقد انهار هيكل القيم والأفكار المُسبقة مع اندلاع الحرب العالميّة الأولى؛ ما أدّى إلى إغراق العالم في بحرٍ من الدّماء لم يُعرَفْ له حتّى ذلك الحين مثيلاً. واقترن بتلك الكارثة انهيار للثّقة في التّقّدّم، ونُمُو جوٍّ من الشّكّ والارتياب بات اليوم الأعمق والأوسع.

ها هو يونغ Yung، العالم والمُحلّل والنّفسانيّ الشهير يرى أنّ جذور تلك الأزمة تعود إلى انفصالنا عن الرُّوح، وعن عالم ما وراء الطّبيعة «فلا توجد ثقافة، أو حضارة قبلنا كانت مُضطّرةً أن تأخذ تلك التّيّارات النّفسيّة الخفيّة بالاهتمام البالغ. كانت الحياة النّفسيّة تجد التّعبير عنها في نُظُم ما وراء الطّبيعة بطريقةٍ ما».

لقد ساد الاعتقاد أنّ العالم المثاليّ، ما بعد المسيحيّة والدّين، عالم الحداثة الجديد سيتحقّق بمجرد اكتساب معلومات كافية، ومعرفة كافية، ومهارات تكنولوجيايّة كافية، فالتّغيير مسألة وقتيّة حتّى نبني عالمًا لن يحتاج إلى تغيير بعد ذلك... لكن ثبت أنّ ذلك الافتراض كان طوباويًّا، وأنّ الأيديولوجيات العلمانيّة، الّتي قادت الحربين العالميتين كانت سفاكةً للدّماء. وأنّ الحداثة نفسها بحسب هابرماس «فقدت يقينيّتها».

لقد استغنى الإنسان عن الله بامتلاكه التّقنيّة، ولم يتردّد بوساطة تلك التّقنيّة في قتل ملايين البشر، وفي تخريب الطّبيعة؛ بذريعة التّقّدّم، والتّفوّق، وتحصيل الثّروة. رأى الغرب في المشروع الفكريّ الحداثيّ، وفي الوضعيّة، والانتقال من الميتافيزيقيا إلى التّجربة الحسيّة، مصدرًا وحيّدًا للمعرفة، ولفهم الإنسان، وتنظيم المجتمع. لكن ذلك المشروع لم يتقدّم في تلك المعرفة بالثّقة الّتي كان يعتقد بأنّها ثابتة مثل المعرفة العلميّة. وها هي الحداثة تنقلب على مبادئها، وعلى ادّعاءاتها، وقد فقدت يقينيّتها بعدما تبين أنّ العلم نفسه ليس حقيقةً ثابتةً، وأنّ تقدّم العلم لم يحلّ مشكلة الإيمان، ولم يُحرّر البشريّة، وأنّ الإنسان ليس مادّة جامدة، وأنّ الدّين ليس وهماً ميتافيزيقيًّا.

باتت الحادثة في مأزقٍ بعدما راهنت على استبدال الدين بالعلم حتى وصلت إلى «الكفر» بالعلم والعقل معاً.

لم يُحقّق «الوعد العظيم» ما بَشَّر به من كشف الإبهام، وإزاحة الستار الدّيني عن العالم، ولم تُحقّق تلك الحرّية التي بَشَّر بها الاطمئنان النّفسي بعد التّفكّل من قيود الدّين وضوابطه ونواحيه. فهيّ هو القلق يُمثّل أحد أهمّ الظواهر التي نالت اهتماماً بحثيّاً مكثّفاً في الدّراسات الإنسانيّة، وقد نُشر حتّى العام 2016م ما يزيد على مائة ألف ورقة بحثيّة عن مختلف الجوانب النّظريّة والتّقويميّة والجوانب الإكلينيكيّة المتعدّدة لذلك الموسوم بالقلق.

لا؛ بل تمخّض ذلك «الوعد العظيم» عن مأزقٍ بدا أنّه غير قابل للحلّ، عالم بات مصير الإنسان فيه خاضع لهيمنة المؤسّسات الاقتصاديّة الكبرى، ولطموحات الهيمنة، والتسلّط، والاحتلال.

هكذا، أصبح الإنسان نقطة بلا معنى في الكون الحديث. ومع الاستمرار في صنّع ولاءات وآلهة بديلة كثيرة للإنسان المعاصر غير الولاء لله الواحد، تجرّأ نيتشه على القول بـ «موت الإله». ليأتي من يقول بعده بـ «موت الإنسان» كما فعل فوكو. وليبشّر آخرون في نهاية القرن العشرين بنهاية الغرب، وموت الغرب، وأقول الغرب....؛ أي أنّ وعود الغرب بالسّعادة العظيمة التي ستجلبها الحداثة والتّقدّم التكنولوجيّ والصّناعيّ للإنسان، لم تفض سوى إلى «موت الإله»، و«موت الإنسان».

هكذا انهار ذلك الوعد العظيم، ولم يتبقّ ما يُمكن الرّهان عليه، بعدما أدّت القطيعة بين الله والإنسان إلى تفكيك الإنسان، وخسران ذاته.

طلال عتريسي